# الاجتهاد

مجلة متخصصة تعنى بقضايا الدين والمجتمع والتجديد العربي الإسلامي

العددان الخمسون والواحد والخمسون — السنة الثالثة عشرة — ربيع وصيف العام ٢٠٠١ - ١٤٢٢ هـ

## من الاستشراق إلى الأنثروبولوجيا (4)

## نقد الاستشراق

علي شلق — الفضل شلق — عبد النبي اصطيف — مصطفى النيفر

طلال أسد — محمد الأرناؤوط — عبد الله يتيم — حاتم الطحاوي

أحمد عبد الحليم عطية — ميشال جحا — شمس الدين الكيلاني — كمال البكاري

رضوان زيادة — محمد خير فرج — بوسلهام الكظ — محمد غشام

رضوان السيد

دار الاجتهاد
بيروت

# نحو استشراقٍ جديد

عبد النبي اصطيف

تشير كلمة «نحو» التي تتصدر العنوان إلى «توجه» يرجو المرء فيما يرجوه أن يقودنا إلى هذا الاستشراق الجديد، في حين يوحي الحديث عن «استشراق جديد» بأن هناك استشراقاً قديماً من جهة، وأن هناك من جهة أخرى حاجة ماسة لنستبدل به استشراقاً آخر جديداً يحلّ محله وينهض بمهمات ووظائف لا تتيسّر لسابقه الذي استنفد فيما نزعم أغراض وجوده ووظائفه التي أسندت إليه من جانب مجتمعه في ظل المناخ الإمبريالي الذي ساد المشهد العالمي حتى عهد قريب.

ولكن الحكمة تقتضي، قبل الحديث عن «قديم» و«جديد» في الاستشراق، أن نبدأ بتعرّف الاستشراق ذاته، وتبين ملامحه بالوقوف على طبيعته ووظيفته وحدوده لدى كل من منتجيه من الآخرين «الغربيين» من جهة، ولدى موضوعه من الشرقيين «العرب» من جهة أخرى، قبل أن نمضي للحديث عن أطواره المختلفة، ولا سيما قديمه وحديثه، ومسوغات الانتقال به من القدم إلى الجدّة، ونختم بعرض قسمات الاستشراق الجديد الذي نسعى إلى بلوغه هدفاً مشروعاً لأمة تبحث عن مستقبل أفضل يقوم على معرفة أفضل للإنسان وما يحيط به من عالم.

الاستشراق مصطلح مولّد سكّه العرب المحدثون مقابلاً لكلمة Orientalism الإنكليزية، وكلمة Orientalisme الفرنسية، وأغلب الظن أنه دخل العربية أول ما دخل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أو نحو ذلك[1]،

---

(1) أنظر مقالة «الاستشراق» في: دائرة المعارف: قاموس عام لكل فن ومطلب، بإدارة: فؤاد أفرام البستاني، المجلد (12)، بيروت، 1977، ص 1.

لأن المعاجم العربية (التي لا تعنى كثيراً بتواريخ الكلمات التي توردها) لم تلتفت إلى هذا المصطلح وتُدرجه في مساقاتها إلا في نهاية العقد السادس من القرن العشرين، وقد كان ذلك على يد صاحب معجم «متن اللغة» الشيخ أحمد رضا الذي أورد صيغة «استشرق» وشرحها على النحو التالي:

«طلب علوم أهل الشرق ولغاتهم، مولدة عصرية، يقال لمن يعنى بذلك من علماء الفرنجة»[1]. وكان ذلك عام 1959 (وربما سبقه إلى إيراد مادة تتصل بالاستشراق معجم «المنجد في اللغة» الذي ترد فيه كلمة مستشرق بمعنى «العالم باللغات والآداب والعلوم الشرقية»)[2] وبعدها تتالت الإشارات في المعاجم الحديثة المختلفة وجلّها يكتفي بصيغة أو صيغتين من المادة اللغوية المتصلة بالاستشراق ويشرحهما بالإشارة إلى المعنى الذي قدّمه الشيخ أحمد رضا والذي يفيد فيما يبدو من صيغة الطلب التي تنطوي عليها الـ «است» في توضيح دلالة الفعل استشرق، وفي تحديد دلالة اسم الفاعل المشتق منه.

ولكن الاستشراق تقليد Tradition ثقافي خارجي ينتجه الخارجيون «the outsiders» غالباً، والداخليون (the insiders) أحياناً وعَرَضاً ونتيجة ظروف خاصة بهم، وبلغات غير لغات الشرق وأهله، ولمجتمعات غير المجتمعات الشرقية، وبالتالي فإن من الضروري أن نبدأ بمفهوم «الاستشراق» لدى منتجيه من الغربيين.

ولننظر إلى هذا المفهوم لدى واحد من كبار المستشرقين الذين يمثلون الحرس القديم في هذه المؤسسة وهو برنارد لويس Bernard Lewis المستشرق الأنكلو ـ أمريكي الذي عمل في أكبر جامعتين أو مركزين من مراكز الاستشراق هما جامعتا لندن وبرنستون، وظفر ـ فضلاً عن نفوذه الواسع في أوساط الاستشراق في العالم كله وفي أوساط القراء والمثقفين عامة ـ باهتمام

(1) أحمد رضا، معجم متن اللغة: موسوعة لغوية حديثة، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1959، المجلد (2)، ص 310.

(2) أنظر المنجد في اللغة، الطبعة العشرون (وهي إعادة طبع للطبعة السابقة عشرة التي تعود إلى عام 1960، كما توحي بذلك المقدمة)، دار المشرق، بيروت، 1969، ص 384.

خاص لدى العرب أنفسهم فقد نازله إدوارد سعيد في أكثر من جولة في أثناء حربه الضروس على الاستشراق والمستشرقين، وأعدّ باحث عربي آخر (من قُطر عربي عرف بوقفته المحافظة تجاه هذا التقليد الثقافي العريق والمتماسك والفعّال هو الدكتور مازن بن صلاح مطبقاني) رسالة دكتوراه عنه ظهرت في كتاب ضخم يحمل عنوان «**الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي: دراسة تطبيقية على كتابات برنارد لويس**» صدر عن مكتبة الملك فهد الوطنية في الرياض عام 1995/ 1416هـ في نحو 615 من الصفحات ذات القطع الكبير؛ لنمضي بعدها إلى مناقشته لدى مؤسسة مهمة جداً من مؤسسات الاستشراق هي «**موسوعة الإسلام**» Encyclopedia of Islam ولا سيما أن مقالتها كما سأوضح لاحقاً جاءت نتيجة مراجعة أو إعادة نظر في هذا التقليد من جانب مؤسسة الاستشراق ذاتها بعد الضجّة التي أثارها كتاب إدوارد سعيد «**الاستشراق**» (1978).

ولنبدأ بتعريف برنارد لويس لهذا المفهوم، والذي ورد في ثنايا بحثه الموسوم بـ «قضية الاستشراق» والذي خصص الجزء الأكبر منه للرد على كتاب إدوارد سعيد «**الاستشراق**»، ولما ساقه هذا الأخير فيه من محاجات تُزعزع مصداقيته بوصفه تقليداً ثقافياً معنياً بدراسة «الآخر»: تاريخاً وثقافة ومجتمعاً.

يعرف برنارد لويس «الاستشراق» فيقول:

> «كانت كلمة الاستشراق في الماضي مستخدمة بمعنيين اثنين: المعنى الأول كان يدل على مدرسة في الفن، على مجموعة من الفنانين ترجع أصول معظمهم إلى أوروبا الغربية. كانوا عبارة عن «رحّالة إلى الشرق» يقيمون لفترة من الزمن في الشرق الأوسط وإفريقيا الشمالية ويرسمون ما يرونه أو ما يتخيلونه. وكانوا يفعلون ذلك أحياناً بطريقة رومانطيقية وغرائبية مدهشة. وأما المعنى الثاني فهو الأكثر شيوعاً ولا علاقة له بالأول: إنه يعني اختصاصاً علمياً. وهذه الكلمة مع العلم الذي تدل عليه تعود إلى عصر التوسع الكبير للعلم في أوروبا الغربية منذ عصر النهضة. فقد كان هناك مختصون بالحضارة الهلنستية ممن يدرسون

اليونانية، وكان هناك لاتينيون ممن يدرسون اللاتينية، وكان هناك مختصون بالتراث العبراني ممن يدرسون العبرية. وكانوا أحياناً ينعتون المختصين بالمجموعتين الأوليين «بالإنسيين»، والمختصين بالمجموعة الثانية بالمستشرقين. ثم راح المستشرقون فيما بعد يركزون اهتمامهم على لغات أخرى غير اللغات الأوروبية.

في البداية كان هؤلاء العلماء الأوائل فقهاء لغة (فيلولوجيين) يهتمون بالتحصيل والدراسة وطبع النصوص وتفسيرها. وكانت تلك هي المهمة الأولى والأساسية التي ينبغي الشروع بها من أجل أن يصبح ممكناً الانخراط في الدراسة الجادة للمواد الأخرى كالفلسفة والتيولوجيا (اللاهوت) والأدب والتاريخ. ولم يكن مصطلح المستشرق غامضاً وغير دقيق إلى الحد الذي يبدو عليه اليوم. ولم يكن هناك إلا منطقة واحدة للدراسة هي تلك التي ندعوها الآن بالشرق الأوسط. وكانت هي الجزء الوحيد من الشرق الذي يستطيع الأوروبيون أن يتباهوا بمعرفته إلى حد ما»[1].

والملاحظ في تعريف برنارد لويس تركيزه على المعنى الأكاديمي للاستشراق بوصفه اختصاصاً علمياً مثل أي اختصاص آخر (وإن كان لا يغفل صلته بالمدرسة الفنية التي تتخذ من الشرق مصدر إلهام لها)، رغبة منه في إضفاء صفات الموضوعية والنزاهة والسعي وراء الحقيقة في هذا التقليد الثقافي. وكأنه بذلك يجرده تماماً من فيروس القوة (الذي أفسده وأفسد ما ينتجه من معرفة مما سنشير إليه لاحقاً)، ويؤكد حقيقة كونه معرفة حيادية لا صلة لها بالعالم الذي أنتجها، ولا بالعالم الذي كان موضوعها، ولا بالعلاقة التي قامت بين هذين العالمين في ظل المدّ الإمبريالي ولا سيما في القرنين الأخيرين.

(1) برنارد لويس، «مسألة الاستشراق»، في: محمد أركون وآخرون، **الاستشراق بين دعاته ومعارضيه**، ترجمة وإعداد هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، 1994، ص ص 161 ـ 162.

ولنمض بعد عرضنا لمفهوم «الاستشراق» لدى برنارد لويس إلى التوقف عند مفهومه لدى مؤسسة «**موسوعة الإسلام**» التي تكاد تكون أهم مرجع عام عن عالم الإسلام تاريخاً وعقيدة ومجتمعات. هذا المفهوم الذي يرد في ثنايا مقالة «**المستشرقون**» التي أعدها المستشرق السويسري جاك واردنبرغ .J.D.J» «Waardinburg صاحب كتابي: «**الإسلام في مرآة الغرب**» الصادر عام 1962، و«**الإسلام والغرب: وجهاً لوجه**» الصادر عام 1998.

وربما كان من المهم الإشارة إلى أن «**موسوعة الإسلام**» قد أغفلت المصطلح تماماً لعقود كثيرة فلم تورده في مجلداتها الأولى ولم ترغب فيما يبدو في الحديث عنه تحت أي عنوان أو مدخل. وعندما ظهر كتاب «**الاستشراق**» لإدوارد سعيد عام 1978 رأت الحاجة ملحّة للاستجابة لما ورد فيه إلى درجة استعجال مناقشته، فرأت أن تكلف البروفيسور واردنبرغ بكتابة مقالة امتدّت نحواً من تسع عشرة صفحة من القطع الكبير ظهرت عام 1992 تحت عنوان «المستشرقون»[1] وفي مساق حرف الميم وليس في مساق حرف «الهمزة» إن أردنا الالتزام بالترتيب الهجائي العربي المعتمد من قبل محرري الموسوعة، وفي مساق حرف الـ «o» إن شئنا اتباع الترتيب الهجائي اللاتيني (ولا سيما أن لغات الموسوعة كما يعرف القارئ هي الإنكليزية والفرنسية والألمانية).

يعرف واردنبرغ المستشرقين بأنهم: «أولئك الذين يدرسون الشرق»، ثم يضيف بأن المصطلح لم يرد في قاموس Lane المشهور وأنه يعني: «الناس الذي يدرسون/ ينشدون الشرق، والناس الذين يصبحون مثل الشرقيين»، ويمضي بعدها ليشير إلى أن مصطلحي «Orient» (الشرق) و«Orientals» (الشرقيون) يحملان تضمنات عاطفية أكثر مما يحمله مصطلحا «East» (الشرق) و«Easterners» الشرقيون. وبالتالي فإن مصطلح «المستشرقون» ينقل مجالاً من المعنى أوسع من مصطلح «Orientalists» الغربي الراهن والذي

(1) أنظر مقالة: «Mustashrikun», in: The Encyclopedia of Islam, New Edition, vol. VII (E.J. Brill, Leiden, 1992), pp. 735-53.

يستعمل حالياً للإشارة إلى «الباحثين المتخصصين في الدراسات الشرقية».

ويمضي الدكتور جاك واردنبرغ في تفحّص المجال المعنوي الذي يغطيه المصطلح فيذكر أن مصطلح «مستشرق» قد ورد أول ما ورد باللغة الإنكليزية نحو عام 1779، وباللغة الفرنسية عام 1799، وأنه كان يدل على معنى واسع هو «كون المرء متجهاً نحو الثقافة الشرقية». وفي القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين كان لمصطلح «المستشرق» معنيان اثنان: ثقافي عام، وبحثي. وهكذا فقد كان يقصد بالمستشرقين الثقافيين «أولئك الذين ألهمهم الشرق، بمن فيهم الرسامون والكتاب»، في حين كان يقصد بالمستشرقين البحثيين «المتخصصون باللغات والثقافات الشرقية» تمييزاً لهم عن الدارسين الكلاسيين المتخصصين باللغات والثقافات الكلاسية (اللاتينية واليونانية). ومعنى هذا أن ما كان يميّز المستشرق الباحث (الذي كان أكثر من مجرد تقني في اللغات الشرقية) أنه دارس في العلوم الإنسانية يفترض فيه أنه ذو معرفة أساسية حقيقية بواحدة أو أكثر من اللغات الشرقية وأنه يكرس نفسه لدراسة اللغات والآداب الشرقية في الماضي والحاضر، وكذلك لدراسة الأوابد الثقافية الأخرى في حقول الفن والآثار. وبحثه عن المعرفة الصلبة هو ما يميزه عن المستشرقين الثقافيين الذين كانوا متحمسين للشرق.

أما مصطلح «Orient» (الشرق) فقد كان يعني حتى نهاية القرن التاسع عشر الشرق الأدنى The Near East بشكل خاص، ولكنه كان يشمل كذلك باقي الإمبراطورية العثمانية وكان في استعماله الفرنسي يشمل شمالي إفريقيا أيضاً، ربما بسبب الاستعمار الفرنسي للمنطقة. والحقيقة أن الشرق «القديم» Ancient كان يشير إلى «الشرق الأدنى» واستمر هذا الاستعمال إلى أن انتشرت المسيحية التي أدخلت مصطلح «الشرق المسيحي»، وبعدها تبعه مصطلح «الشرق المسلم» أو «الشرق الإسلامي» وذلك بعد أن تمت أسلمة المنطقة بكاملها في القرنين السابع والثامن الميلاديين.

وفي القرنين التاسع عشر والعشرين اتسع مفهوم الشرق ليشمل آسيا كلها مع احتفاظه بمعنى «الثقافات غير المعروفة عامة والتي كانت تتحدى الغربي

لاكتشافها».

والخلاصة أن مصطلح «الاستشراق» بمعناه الواسع كان يشير حتى الحرب العالمية الثانية إلى «توجه ثقافي محدد في أوروبا وشمالي أمريكا»، وبمعناه الضيق إلى «الدراسات الشرقية التجريبية» «Empirical Oriental Studies».

وقد عقد المؤتمر الدولي الأول للمستشرقين في باريس عام 1873، وتمّ تأسيس الاتحاد الدولي للمستشرقين عام 1951، ومنذ مؤتمر موسكو الدولي للمستشرقين الذي انعقد عام 1960، ومصطلح «المستشرقين» يخضع لمساءلات جادة لأسباب مختلفة، وبعد مؤتمر باريس الذي انعقد عام 1973، تمّ تغيير اسم المؤتمر نفسه. إن الثقافات الآسيوية «شرقية» عندما يتم النظر إليها من أوروبا، ولكن دارسيها اليوم لا ينتمون إلى أوروبا وحدها وثمة متخصصون بهذه الثقافات من المنطقة نفسها، ولذلك فإن مصطلح «الشرق» (وما يرتبط به من مصطلحات) غدا بوجه عام مصطلحاً مجازياً. والاتجاه السائد اليوم هو أن يجري الحديث عن «العلوم الإنسانية في آسيا وشمالي إفريقيا»، والباحثون الاستشراقيون أصبحوا يعرفون اليوم بثقافة تخصصهم ومنطقته وفترته، وبحقلهم المعرفي أيضاً.

ونظراً لأن مصطلح «مستشرقون» معدّ لـ «**موسوعة الإسلام**»، وانسجاماً مع طبيعة الموسوعة فإن واردنبرغ يستعمله ليشير بالتحديد إلى «باحثي الإسلام والمجتمعات والثقافات الإسلامية»؛ ويستعمل مصطلح «الدراسات الشرقية» «Oriental Studies» ليشير بالتحديد أيضاً إلى فرعها الذي ينصرف إلى «دراسة الإسلام والمجتمعات والثقافات الإسلامية» أي إلى «الدراسات الإسلامية» بالمعنى الواسع للكلمة (ص ص 735 ـ 736).

والواقع أن مصطلح «المستشرق» قد خضع لتحوّلات مهمة من وجوه عديدة ولا سيما في هذا القرن، ففي حين كان يشير إلى الباحثين غير المسلمين من الغربيين الذين يدرسون الإسلام تاريخاً وثقافة ومجتمعات، نجد أن عدداً من هؤلاء الباحثين هم من مسلمي الغرب، وكذلك فإن حقل

الدراسات الإسلامية في الغرب لم يعد يقتصر على الأوروبيين وحدهم، وهناك عدد متزايد من غير الأوروبيين (من العرب وغيرهم) يشاركون في إنتاج المعرفة المتصلة بالشرق الإسلامي خاصة والشرق عامة. ولذا فقد كان من الطبيعي أن يسعى واردنبرغ إلى تقديم تعريف محدد يهتدي به في معالجته لهذا الموضوع الخطير الموسوم بـ «المستشرقين». وهكذا نراه يقترح أن يفهم على أنه يشمل:

«الباحثين غير المنحازين للإسلام والمجتمعات والثقافات الإسلامية، سواء أكانوا من أصول غربية أم غير غربية، مسلمين أم غير مسلمين وسواء أكانوا يعملون في الغرب أم في أي مكان آخر. ذلك أن التعاون بين الباحثين في الحقل المعرفي يتم متجاوزاً فروق العقيدة، وبلد المنشأ، أو مكان العمل. والفارق الوحيد ـ فيما يبدو ـ هو أن الباحثين المسلمين أكثر وعياً بالتضمنات الآنية لبحوثهم بالنسبة للجماعة المسلمة» (ص 736).

والتغيّر الآخر الذي طرأ على فكرة المستشرق يتصل بمنطقة تخصصه. ففي الأزمنة الأولى كان جميع المستشرقين تقريباً فقهاء لغة محترفين باللغات الشرقية مع اهتمامات شرقية أو دونها، وكان ذلك مساراً شاقاً من مسارات الدراسة بتراثه، ومتطلبات البحث الخاصة به، لا يترك أي فسحة لأية نماذج في البحث. ولكن العقود الأخيرة قد شهدت باحثين من حقول معرفية أخرى انشغلوا وعلى نحو متزايد في المجتمعات والثقافات الإسلامية. وقد ضمّ هؤلاء مؤرخين اجتماعيين، وأنثروبولوجيين، وباحثين آخرين في العلوم الاجتماعية، وكذلك متخصصين في حقول الآداب والفنون والدين. ولذا فإن واردنبرغ يحدّد تضمنات مصطلح مستشرق من حيث تخصصه فيشير إلى أن كلمة المستشرقين، عندما تستعمل للماضي، تدل على «باحثي اللغات والآداب والتواريخ الشرقية» وأنها عندما تستعمل للحاضر، «تشمل كذلك ممثلين من حقول معرفية أخرى تسهم في معرفتنا بالمجتمعات والثقافات الإسلامية» (ص 736).

وهكذا يتبيّن كيف يقود وادنبرغ قارئ مقالته بالتدريج ليجعله يركز أنظاره

على الجانب البحثي العلمي للمستشرقين منبهاً إياه باستمرار على الضغوط التي يخضعون لها من جانب مجتمعاتهم التي تريدهم أو ربما تحملهم على أن يكونوا أعضاء نافعين لها ولا سيما في مواجهتها للمجتمعات الشرقية. ولا شك أن حديث واردنبرغ على هذا النحو يشي بشكل غير مباشر بتأثير ادوارد سعيد في ضرورة النظر إلى الاستشراق على أنه تقليد ثقافي دنيوي لصيق بشروط إنتاجه وظروفه وعلاقاته ووظائفه المختلفة التي تُسند إليه عادة في عالمه الذي يحتويه.

وهذا ما نجده أوضح في حديث واردنبرغ عن الوظيفة الاجتماعية للمستشرق الذي غدا أكثر من ذي قبل خبيراً في وجوه معينة من الإسلام والمجتمعات والثقافات الإسلامية، وعليه أن يضع هذه الخبرة في خدمة مجتمعه فضلاً عن قيامه بالبحث والتدريس. ومعنى هذا أن عليه أن يقدم المعرفة والمعلومة عند الطلب مثلما عليه أن يقوم بالاتصالات مع الشرق عند الحاجة. وأكثر من هذا فإن بعض الحالات تقتضي إسناد مهمات خاصة إلى هذا المستشرق من قبل مجتمعه الذي تتزايد ضغوطه على المستشرقين عامة ليستجيبوا لحاجات مجتمعاتهم ويجعلوا صلة معرفتهم أكثر وثاقة بمؤسساتها.

## مفهوم الاستشراق لدى العرب

وإذا ما انتقل المرء إلى مفهوم «الاستشراق» لدى موضوعه، أي لدى الشرقيين أنفسهم، ولا سيما العرب، فإنه يلاحظ أن بعض العرب يتوسعون في دلالة المصطلح فيتجاوزون بذلك جانبه البحثي، في حين يضيقها بعضهم فيقصرها على هذا الجانب دون غيره. ولما كان استقصاء دلالة هذا المفهوم لدى جميع المعنيين من الباحثين العرب أمر غير ممكن في حيّز محدود، فإنه ربما كان من الحكمة الاقتصار على نماذج من هذه الدلالة تمثّل الصوى الأكثر أهمية في الطيف الواسع الذي تمتد على مدارجه.

تعرّف **الموسوعة العربية العالمية** (الصادرة عام 1416هـ و1996م) الاستشراق بأنه «دراسات أكاديمية يقوم بها باحثون أجانب ـ من أهل الكتاب

بوجه خاص ـ حول الإسلام والمسلمين من جميع الجوانب التاريخية والعقدية والفقهية والثقافية والحضارية وحول حضارة الشرق بصفة عامة»[1]. وهذا التعريف كما يمكن أن يلاحظ المرء يكاد يقتصر على جانب محدود جداً من هذا التقليد الثقافي هو جانب الدراسات الأكاديمية البحثية التي ينتجها العلماء الأجانب ولا سيما أولئك الذين يعتنقون المسيحية واليهودية منهم. ومقابل هذا القصر المسرف للمصطلح على حقل صغير جداً من الدلالة، نجد أن ثمة باحثين يتوسعون به توسعاً يشمل كل المجالات التي يصار فيها إلى الإفصاح عن أمور شرقية، سواء أكان هذا الإفصاح في شكل إنشاء، أم في كاريكاتير أم في عنوان خبر صحفي. وهكذا «فليس مجال الاستشراق كله مكتوباً، فهو يعيش في ثقافة الغرب بنواحيها المختلفة، العلمية المدوّنة منها، أو الشفهية والميثولوجية والمرمزة، وإفصاح الاستشراق إفصاح عن التباين بين شرق وغرب متضاربين ثقافة وسياسة»[2].

وهناك بين هذا المفهوم الواسع وبين المفهوم الضيق الذي سبقه مفاهيم متفاوتة في اتساع دائرتها وضيقها والتي ربما كان من أبرزها التعريف الذي طرحه إدوارد سعيد في كتابه المشهور **الاستشراق** الذي زلزل به الأركان الوطيدة لهذا التقليد الثقافي العريق.

يكتب سعيد في مدخله معرفاً المستشرق فيقول:

«كل من يقوم بتدريس الشرق، أو الكتابة عنه، أو بحثه ـ ويسري ذلك سواء أكان المرء أنثروبولوجياً، أم عالم اجتماع، أم مؤرخاً، أم فقيه لغة ـ في وجوهه المحددة أم العامة على حد سواء، هو مستشرق، وما يقوم به أو تقوم

(1) أنظر مدخل «الاستشراق» في: **الموسوعة العربية العالمية**، المجلد الأول، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، 1416هـ/ 1996م، ص ص 676 ـ 697، ولا سيما ص 676.

(2) أنظر: د. عزيز العظمة، «إفصاح الاستشراق»، **المستقبل العربي**، بيروت، العدد 32، تشرين الأول 1981، ص 43.

به هو استشراق».

وفضلاً عن هذا المعنى الأكاديمي ثمة معنى أكثر عمومية منه يطال أسلوب التفكير نفسه. والاستشراق بهذا المعنى هو «أسلوب في التفكير قائم على تمييز وجودي (أنطولوجي) ومعرفي (إبستمولوجي) جعل بين (الشرق) و(في معظم الأحيان) (الغرب). وهكذا فإن مجموعة كبيرة من الكتاب، من بينهم شعراء وروائيون وفلاسفة، منظرون في علم السياسة، وعلماء اقتصاد، وإداريون إمبرياليون، قد قبلوا التمييز الأساسي بين الشرق والغرب منطلقاً لنظريات، وملاحم، وروايات، وأوصاف اجتماعية، وروايات سياسية متطورة تتصل بالشرق وأهله وعاداته، و(عقله) ومصيره وغير ذلك»[1].

وهناك معنى ثالث، وهو أكثر تحديداً من الناحيتين التاريخية والمادية من المعنيين السابقين، فحواه أنه باتخاذ أواخر القرن الثامن عشر نقطة للانطلاق محددة تحديداً تقريبياً، يمكن أن يناقش الاستشراق و«يحلل بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق: التعامل معه بإصدار تقريرات عنه، وإجازة الآراء فيه وإقرارها، وبوصفه، وتدريسه، والإقامة فيه، وحكمه، وباختصار الاستشراق بوصفه أسلوباً غربياً للسيطرة على الشرق، وإعادة بنائه، وامتلاك السلطة عليه». وربما كان هذا الفهم الواسع نسبياً هو ما حدا بإدوارد سعيد إلى تفحص الاستشراق بوصفه إنشاء (discourse) من أجل فهم هذا الحقل المعرفي المنظم إلى درجة هائلة والذي استطاعت الثقافة الغربية من خلاله تدبّر الشرق وإعادة إنتاجه سياسياً واجتماعياً وعسكرياً وأيديولوجياً وعلمياً وتخيلياً في مرحلة ما بعد عصر التنوير[2].

## ما الاستشراق؟

واستناداً إلى ما تقدم من مسح محدود لمفهوم «الاستشراق» بين صفوف منتجيه وموضوعه، وإلى ما تيسّر لصاحب هذه السطور من اطلاع أوسع على

(1) أنظر: Edward W. Said, Orientalism (Routledge and Kegan Paul, London, 1978), p. 2

(2) المرجع السابق، ص 3.

محاولات تعريفه في مختلف الأوساط الشرقية والغربية يمكن للمرء أن يقترح تعريفاً يمكن أن تنضوي تحته مختلف أشكال الإفصاح عن هذا الارتباط بالشرق الذي نقع عليه في حياة «الآخر». وهكذا يمكن القول إن:

الاستشراق معرفة موضوعها الشرق، ينتجها غالباً غير الشرقي عن هذا الشرق الذي يضيق فيقصد به «الشرق العربي» الذي يشمل الوطن العربي وبعض دول الجوار من مثل تركيا وإيران، ويتسع فيشمل الشرق الأدنى والأوسط والأقصى وما بينها من أمصار تقع إلى الشرق من أوروبا الغربية التي نظرت إلى نفسها على أنها مركز العالم وجعلت توزعه إلى قارات ومناطق وتتدبره معرفياً قبل أن تتدبره عملياً ولا سيما في قرني المدّ الإمبريالي. وإنتاج هذه المعرفة قد يعزى إلى الفضول حيناً، ويعزى إلى الخوف حيناً آخر، عندما يولد الخوف العداوة والبغضاء فيولدان بدورهما حس المواجهة التي يسعى كل طرف منها إلى توظيف كل الأسلحة والأدوات والوسائل فيها من أجل ترجيح كفته إزاء الآخر، المختلف، الذي ينبغي للذات أن تدخله في نطاقها فيغدو المؤتلفَ المثيلَ في كل شيء ويتبدد عندها الخوف، والإنسان أبداً عدو ما يجهل.

والمقصود بهذه المعرفة بالطبع ليس هذا «الآخر» الذي هو موضوعها، ولا شأن له بها، فقد أنتجت لتخدم مجتمع منتجها في مواجهته لهذا «الآخر» في لغة يفهمها، ومن خلال إطار مرجعي يعقله، وهو في النهاية مموِّلُ عملية الإنتاج هذه والمشرف عليها على نحو غير مباشر أو مباشر عن طريق مؤسسات إنتاج المعرفة التي يقيمها لأغراض عامة أو خاصة، وهذا طبيعي جداً فلكل مجتمع مؤسساته التي ينتج من خلالها المعرفة التي تعينه على تدبر مختلف وجوه حياته وعلاقاته الداخلية والخارجية.

وسواء أأدرك منتج هذه المعرفة حقيقة ارتباط ما ينتجه منها بحاجات مجتمعه (الذي يتابع عملية إنتاجها بدءًا من إعداد منتجها وانتهاء بها مجسدة بشكل من الأشكال) أم لم يدركها، فإن المعرفة المتصلة «بالذات» والنفس عامة، و«الآخر» خاصة ما كانت بعيدة في يوم من الأيام عن علاقات القوة

والسلطة التي تربط بين الأنا والآخر، أو بين «نحن» و«هم»، أو بين «الغرب» و«الشرق» في حالتنا الآن. يكتب الدكتور رضوان السيد عن دارسين ألمانيين (هما هلموت ريتر ورودي بارت) «أبدع أولهما في مجالات تاريخ الفكر الديني الإسلامي والدراسات الأدبية العربية والفارسية والتركية. ونذر ثانيهما نفسه في العشرين سنة الأخيرة من حياته للدراسات القرآنية» مؤكداً أن لا شأن لأي منهما فعلاً بصراعات الشرق والغرب، ولكنه يضيف مستدركاً فيقول:

«لكن الاستخدام الوظيفي للمعرفة لا تحدده نوايا الفرد الكاتب. ثم إنهم يعرفون أن مجتمعاتهم هم تحيطهم بالشكوك مثلما يفعل المسلمون؛ وإن اختلفت الأسباب. والدولة الغربية الحديثة من السطوة وأسباب التحكم بحيث تستطيع ـ وهم يعلمون ذلك ـ أن تستخدم نتائج دراساتهم في القنوات التي تريد، والتي تخدم مصالحها في بلادنا. والغِرُّ فقط ـ منا ومنهم ـ هو الذي يرى في دراسات وات (البريطاني) ومومبين ورودنسون (الفرنسيان) وبارت (الألماني) عن نبيّ الإسلام؛ اختلافات منهجية أو مصادفةً بحتة. ولسنا من قِصر النظر في الوقت نفسه بحيث نعتبرهم المسؤولين الرئيسيين فكرياً عن صورتنا وصورة الإسلام المعاصرة بالغرب. وقد أوضح إدوارد سعيد في كتابه: **تغطية الإسلام**، أن وسائل الإعلام الحديثة هي التي تصنع الصورة والرأي؛ بحيث يتعذر على الشجعان والموضوعيين والمعتدلين منهم (إن وجدوا) التصدّي لوسائل صناعة الرأي العام في قضايا الشرق الإسلامي وأحداثه»[1].

أما أشكال هذه المعرفة فإنها متنوعة جداً يمتد طيفها على مدى واسع، اتساعاً أكبر مما يبدو للمرء للوهلة الأولى ولا يقتصر، كما يحاول الغربيون أن يؤكدوا باستمرار، على مجالات البحث الجامعي المتخصص، والاهتمام

(1) د. رضوان السيد، «الاستشراق والمستشرقون بين الغلو والمغالاة»، في: **محاضرات الموسم الثقافي الخامس عشر: 1999**، مؤسسة الثقافة والفنون، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1999، ص ص 185 ـ 186.

الثقافي العام. ذلك أنها قد تتخذ:

- شكل الرسالة الجامعية التي ينشئها الباحث الغربي لينال بها درجة علمية، أو يسعى من خلالها إلى الحصول على ترقية أو منصب أو عمل أو نحو ذلك؛
- شكل الكتاب العلمي الذي يحاول من خلاله مؤلفه أن يسهم في حقل تخصصه، يتوجه به إلى جمهور محدود من الأكاديميين، أو جماعة من الجماعات التي يهمها ما ينطوي عليه من معلومات؛
- شكل الكتاب العام الذي يخاطب القارئ العام يرضي فضوله ورغبته في معرفة قضية أو مسألة أو أمر يدخل في دائرة اهتماماته الدنيوية بشكل خاص؛
- شكل البحث القصير الذي يتجسد بمقالة رصينة ترسل إلى مجلة محكمة ينظر فيها أهل الرأي وينشرونها ليقرأها أفراد نادي الصفوة الذين يعنون بهذه المجلة؛
- شكل المقالة العامة التي ترصد وجهاً من وجوه الحياة في الشرق أو جانباً من جوانبها، أو علماً من أعلامها، أو حدثاً يتصل بماضيه أو حاضره مما يقع عليه المرء في كل يوم في مختلف الدوريات الثقافية التي تعني القارئ المثقف والعام؛
- شكل التقرير الصحفي، أو الإخباري، ينتجه الصحفي، أو مراسل وكالات الأنباء، أو مندوب الإذاعات أو القنوات التلفزيونية أو ممثل شبكة من شبكات المعلومات القطرية أو الإقليمية أو الدولية؛
- شكل المذكرات التي يعدّها الدبلوماسي، أو الخبير الزائر، أو المسؤول الموفد في مهمة رسمية في الشرق، أو التقارير الرسمية؛
- شكل اليوميات أو الانطباعات أو المشاهدات أو الرسائل الشخصية أو حتى مسودات الأعمال الرسمية التي ينتجها المقيم أو المرتحل في الشرق وتندرج عادة تحت زمرة «الأوراق الخاصة» Private Papers؛
- شكل كتاب الرحلة التي يقوم بها الرحالة المتخصص بهذا الجنس الأدبي الشائع جداً والذي يتمتع بجمهور واسع جداً يتلهف لقراءة ما يدونه هؤلاء من الغرائب والعجائب التي يحفل بها الشرق من مَعينه الذي لا ينضب؛

- شكل الدليل السياحي، الذي يشتريه الغربي قبل سفره إلى الشرق أو يصطحبه معه في رحلة إلى هناك، يقرؤه بعناية ودقة، ويقارن بين ما يقرؤه وبين ما يراه ويشاهده ويسمعه ويعيشه في مختلف مراحل رحلته، فيرضى عنه إن كان الواقع الشرقي مطابقاً للدليل، ويسخط بالمقابل على هذا الواقع الشرقي إن كان غير مطابق له، لأنه فيما يبدو له لم يرتق إلى الصورة التي يقدّمها الدليل الذي كان المُحَفِّز على إثارة اهتمامه بالرحلة ومقاطعها المختلفة، وذلك بما يبنيه من توقعات في نفسه، وما يزيّنه له من مشاهدات مرتقبة. وتتضافر الكلمة والصورة عادة في هذا الدليل على بناء المعرفة المتصلة بالشرق ومختلف جوانب الحياة فيه في الماضي والحاضر، ولا سيما عندما تحاول أن توقظ مراكز من الذاكرة الجمعية للقارئ الذي سبق أن فتن بالشرق دينياً من خلال ما تولده التوراة في نفسه من حنين إلى الأراضي المقدسة، ودنيوياً من خلال ما يراكم في نفسه كتاب **الليالي العربية** أو **ألف ليلة وليلة** وغيره من روائع كتب السرد العربية والشرقية، وهي معين لا ينضب فيما يبدو لمختلف ألوان الغرائب والعجائب والإثارة في مخيلة هذا القارئ؛
- شكل التحليل السياسي الذي يكتبه المحلل أو المعلق السياسي حول شأن من شؤون الساعة، أو موضوع من موضوعاتها مما يدخل تحت عنوان «الشؤون الراهنة» Current affairs، والشرق دائماً في القلب من شؤون الساعة يشغل الناس ويملأ الدنيا بمشكلاته بعد أن ملأ خيالات العالم بعجائبه ومغامرات أهله؛
- شكل القصيدة، أو القصة القصيرة، أو الرواية، أو المسرحية، المستوحاة من لقاء ما على مستوى من المستويات وفي وجه من الوجوه مع الشرق وأهله؛
- شكل اللوحة الفنية التي يستلهمها الفنان التشكيلي الغربي من تماس مباشر أو غير مباشر مع الشرق وأهله. وما أكثر المستشرقين من الفنانين التشكيليين الأوروبيين وغير الأوروبيين، وما أوسع دائرة الاهتمام بهم، ولا سيما أن لغة الصورة ليست في حاجة في أغلب الأوقات إلى ترجمة؛
- شكل الطرفة التي يرويها الغربي عن «الشرقي» بوصفه «الآخر» المختلف

محفوزاً بمواجهة، أو مناسبة ما، يتصل بهذا الشرقي؛

- شكل متخلل motif أو لازمة، أو مكوّن، أو عنصر، أو جزئية مستمدة من الشرق في عمارة أو بنيان أو تصميم هندسي، أو زي، أو قطعة أثاث، أو أداة من أدوات المنزل التي يحفل بها العالم الغربي ولا سيما بعد ازدياد اتصاله بالشرق؛
- شكل الرسم الكاريكاتيري الساخر الذي يرصد ظاهرة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية أو فنية يتصل بالشرقي الآخر ويعلق عليها بطريقته الخاصة؛
- شكل موضوع يدور حوله عمل موسيقي، أو عمل راقص، أو عمل مسرحي، مما يتصل بالشرق وأهله؛
- شكل الفيلم الروائي الذي يتخذ من الشرق موضوعاً له، أو مكاناً لأحداثه، أو مصدراً يستمد منه شخصياته أو أفكاره أو تفصيلاً من تفصيلاته، وربما كان ما يميز هذا الشكل قوة تأثيره لأنه يقدّم حياة نظيرة للحياة الإنسانية تنطوي على كل مقومات الإقناع والإيهام بالواقع، وبالتالي يمتلك مصداقية أكبر بكثير مما يمكن أن يتوقعه المرء من شكل كهذا (مثل أفلام والت ديزني للصور المتحركة، الأفلام المستوحاة من ألف ليلة وليلة، الأفلام التي تتناول أحداثاً جرت في المنطقة كالحربين العالميتين الأولى والثانية، أو شخصيات عاشت في الوطن العربي من مثل فيلم لورنس الجزيرة العربية وما شابهه)؛
- شكل الفيلم التسجيلي الذي يتناول وجهاً من وجوه الحياة الإنسانية أو الطبيعية أو التاريخية للشرق وأهله في الماضي أو الحاضر، والذي تنتجه شركات أو مؤسسات عامة أو خاصة بمناسبة معينة، أو لغرض ما، أو هدف محدد؛
- شكل الإعلان المروّج لسلعة ما ولا سيما ذلك النوع الذي يصدر فيه صاحبه عن الأفكار المسبقة التي تحفزها صفحات المواجهة الطويلة بين الشرق والغرب، والمستوحاة من **ألف ليلة وليلة**، أو **التوراة**، أو مجتمع النفط وما شابه ذلك؛

- شكل وصفة لإعداد طبق طعام معين، أو شراب معين، يروق للآخرين ممن يستبد بهم هوى الشرق أو الحنين إليه على مستوى من المستويات فيطفئون هذا الشرق من خلال هذه الأشياء الصغيرة.

إن جميع أشكال المعرفة المتقدم ذكرها يمكن بسهولة أن توصف بأنها معرفة استشراقية أو شرقية، استشراقية، ينتجها المستشرق «الآخر»، وشرقية، موضوعها الشرق تاريخاً وثقافة ولغة ومجتمعاً وحياة. وجميعها ينطوي على وحدة أو وحدات من المعلومات والمعرفة عن الشرق ينتجها «الآخر» وينشرها بين متلقين تضيق وتتسع دائرتهم تبعاً للظروف والشروط المتصلة بعمليتي الإنتاج والانتشار اللتين تتمان في مجتمع أو مجتمعات «الآخر».

ولكن المفارقة المثيرة في هذه المعرفة الاستشراقية أنها تفضي للقارئ عن منتجها «الآخر» أكثر مما تتحدث عن موضوعها لأنها إنتاج دنيوي مرتبط بالعالم الذي أنجبه وبالوظائف التي يؤديها في هذا المجتمع والتي ربما كان من أبرزها خدمة هذا المجتمع في مواجهته لما ينظر إليه على أنه «الآخر» الذي هو، في هذه الحالة، الشرق.

وبالتالي فإن من الأهمية بمكان أن ننظر إلى هذه المعرفة ونتفحصها في سياق إنتاجها وضمن شبكة العلاقات التي تقيمها مع عناصرها المكونة والمسهمة في تشكيلها.

## طبيعة المعرفة الاستشراقية

والحقيقة أن أول ما يلاحظه المتفحص لطبيعة هذه المعرفة الاستشراقية أنها معرفة مؤسسة على جهل عريق. فقد كانت بداياتها الأولى والتي استطالت وامتدت نحواً من عشرة قرون قائمة على جهل غريب من نوعه للإسلام والمسلمين محفوز بحس المواجهة، ومبطن بمشاعر العداوة والكراهية لهذا الدين بسبب ما يحمله من خطر على المسيحية ومملكتها الممتدة على شواطئ المتوسط (بلاد الشام ومصر وشمالي إفريقية).

وقد أشار ألبرت حوراني إلى هذا الجهل فكتب في مؤلفه الرائع **الإسلام**

## في الفكر الأوروبي:

«ومع بعض الاستثناءات، فإنّ فكر المسيحيين عن الإسلام، وخلال ألف السنة الأولى أو نحوها من المواجهة، يتّسم بجهلٍ كامل»[1].

وسمى ريتشارد سوذرن القرون الخمسة الأولى أو نحوها منها بـ «عصر الجهل»[2] «Age of Ignorance».

وصنف هذا الجهل في نوعين: جهل «الفسحة الضيقة» «confined space» وجهل «الخيال المنتصر» «triumphant imagination».

«وكان النوع الأول السمة المهيمنة على الموقف الغربي من الإسلام خلال أربعة القرون الأولى بعد عام 700م، وكان الثاني من خلق السنوات الأربعين من عام 1100م وحتى نحو عام 1140 والموقف المميز لها».

ويشرح سوذرن النوع الأول أو جهل «الفسحة الضيقة» فيكتب:

«وهذا من نوع الجهل الخاص بنزيل السجن، يسمع إشاعات عن أحداث في الخارج، ويحاول أن يمنح شكلاً لما يسمع مستعيناً بأفكاره المسبقة. لقد كان الكتّاب الغربيون قبل عام 1100م في هذا الوضع بالنسبة للإسلام. فهم لم يعرفوا فعلياً أي شيء عن الإسلام بوصفه ديناً: لقد كان الإسلام بالنسبة لهم واحداً من بين عدد كبير من الأعداء المهددين للمسيحية من كل الاتجاهات، ولم يكن لديهم أي اهتمام بتمييز عبدة الأوثان الشماليين، والسلافيين،

---

(1) أنظر: Albert Hourani, Islam in European Thought (Cambridge University Press, Cambridge, 1992), p. 8.

(2) أنظر: R.W. Southern, Western Views of Islam in the Middle Ages (Harvard University Press, Cambridge, Ma., 1978), pp. 1-33.

وقد تُرجم هذا الكتاب من جانب علي فهمي خشيم عام 1975. ثم من جانب رضوان السيد عام 1983 (المحرر).

والمجريين عن نزعة الإسلام في التوحيد، أو تمييز البدعة المانوية من بدعة محمد. وليس ثمة علامة على أن أحداً ما في أوروبا الشمالية قد سمع حتى باسم محمد، ولكن، الكتاب اللاتينيين، وعلى الرغم من جهلهم، لم يُتركوا تماماً دون مفتاح لمكان المسلمين في المخطط العام للتاريخ العالمي. وقد يسرت التوراة هذا المفتاح»[1].

وكان رأي الأوروبيين في الإسلام في تلك القرون الأربعة: «حصيلة الجهل، ولكنه من نوع معقد على نحو خاص. وكان الناس الذين طوروا هذا الرأي أناساً يكتبون عما اختبروه على نحو عميق، وقد ربطوا بين تجربتهم وبين الأساس المكين المتاح لهم ـ التوراة.

لقد كانوا جاهلين بالإسلام، ليس لأنهم كانوا بعيدين عنه مثل الباحثين الكارولنجيين، بل لأنهم كانوا على النقيض من ذلك، في وسطه. وإذا ما رأوا أو فهموا القليل مما دار حولهم، وإذا لم يعرفوا أي شيء عن الإسلام بوصفه ديناً، فمردّ ذلك أنهم لم يرغبوا بمعرفة أي شيء»[2].

وعندما يلتفت المرء إلى جهل «الخيال المنتصر» الذي ساد بداية فترة الحروب الصليبية التي شنها الغرب المسيحي على دار الإسلام في الشرق، فإنه يلاحظ أن الحملات الصليبية التي وضعت الغرب وجهاً لوجه أمام الإسلام والمسلمين لم تولّد أية معرفة حقيقية عن الإسلام ونبيه وأتباعه.

يكتب سوذرن عن هذا النوع الثاني من الجهل فيقول:

«لقد رأى الصليبيون الأوائل، وأولئك الذين تبعوهم مباشرة إلى فلسطين، وفهموا، وعلى نحو غير عادي، القليل من المشهد الشرقي. ذلك أن النجاحات المبكرة لم تشجع أي ردود أفعال آنية

(1) المرجع السابق، ص ص 14 ـ 15.

(2) المرجع السابق، ص 25.

باستثناء ردود أفعال النصر والاحتقار. ولكنها جعلت كذلك دين الإسلام ومؤسِّسه وللمرة الأولى مفاهيم مألوفة في الغرب. وقبل عام 1100 لم أعثر إلا مرة واحدة على ذكر لاسم محمد في الكتابات الوسيطة خارج إسبانية وجنوبي إيطالية. ولكن ومنذ نحو عام 1120 كان لدى كل واحد في الغرب صورة ما عما عناه الإسلام وعما هو محمد. وكانت الصورة واضحة على نحو متألق. ولكنها لم تكن معرفة وتفاصيلها كانت حقيقية عرضاً. لقد كان مؤلفوها ينعمون بجهل الخيال المنتصر»[1].

وثاني ما يلاحظه الباحث في طبيعة المعرفة الاستشراقية أن موضوعها وهو الشرق وأهله تاريخاً وثقافة ومجتمعاً مغيّب ومفتقد، وأن صلتها به صلة واهية. ويكفي المرء أن يتتبع صورة الشرقي في الكتابات الاستشراقية حتى يتبين مقدار ما يكنه المستشرق من احترام لموضوعه من جهة، ومقدار ما تنطوي عليه هذه الكتابات من عنصرية صارخة تبعث على الأسى من جهة أخرى. يكتب رضوان السيد عن صورة الشرق في الوعي الغربي ولا سيما لدى المستشرقين فيقول:

«إن المثقفين الغربيين (والمهتمين منهم بالشرق على الخصوص) ميّزوا الشرق بصورة متخيلة إرضاءً لميول ومصالح وأحلام، وتمييزاً له عن الغرب الذي يبقى هو بدوره مفهوماً غائماً شديد العمومية. والدليل على ذلك أنه في ظل هذا المفهوم للشرق ظهرت رؤى أنتروبولوجية وإثنية وفكرية تحوّل الشرق هذا إلى حقل تجارب لفروض ونظريات متخلفة من وجهة نظر تاريخ العلوم وفلسفتها، ومن وجهة نظر علوم الحياة والاجتماع. لقد ظهر العرق السامي بخصائصه الخُلقية والعقلية فظهرت في المقابل الإثنياتُ الأخرى. وبرز في هذا المجال إرنست رينان وجوتييه وجوبينو. ومع ماكس فيبر وعلم الاجتماع الوظيفي وأنثروبولوجيا المجتمعات البدائية، والرؤية الماركسية لما

(1) المرجع السابق، ص ص 27 ـ 28.

سمِّي نمط الإنتاج الآسيوي، برزت فرضية المجالات الثقافية المتمايزة في العالم؛ تلك التي طوّرها استشراقياً كارل هينرش بيكر وشيدر؛ وبلغت ذروتها في الدراسات الإسلامية على يد ليفي ديللافيدا وجوستاف فون غرينباوم»[1].

وبالتالي فإن الشرق نادراً ما يُقصد بوصفه مصدراً للمعرفة عن نفسه، أو عن تاريخه، أو ثقافته أو أدبه، بحجة كونه داخلياً تأسره الذاتية وتبعده عن دائرة الموضوعية objectivity واللاانحياز impartiality التي ينفرد الغربي بوصفه خارجياً غير منحاز في سكناها والتربع على عرشها. والشرق مهم وما يتصل به مهم بمقدار صلته بالغرب واهتماماته ومصالحه وأهوائه وليس له وجود مستقل بنفسه ولا يمكن النظر إليه من خلال منطقه الخاص به، أو نظامه الذي يحكم أي وجه من وجوه حياته أو وجوده.

وهكذا فإن اهتمام الغرب في دراسته للتراث اللغوي والديني للشرق قد انصرف إلى تلك الجوانب المتصلة بالأراضي المقدسة والتوراة وأسفارها وترجماتها، أمام الجوانب الأخرى المتصلة بتاريخ الشرقيين ومواريثهم وثقافاتهم ومجتمعاتهم فقد درست لتؤكد طبيعة الهوية الأوروبية التي تقف على النقيض من الهوية الشرقية في كل وجه، فهي الإيجاب برمته مقابل السلب برمته والذي يمثله الشرق.

**وثالث** ما يمكن ملاحظته في هذه المعرفة الاستشراقية أنها قد ارتبطت بمنتجها، وعلى نحو شامل، ارتباطاً عضوياً وعبرت أساساً عما يريد أن يعرفه، أو يؤكده، أو يلفقه، أو يخلقه، ليسوغ تحت مظلته كل أفعاله تجاه الشرق. لقد كانت هذه المعرفة مظلة أيديولوجية لكل ما ارتكبه الغرب بحق الشرق تسوغه بشتى الذرائع التي يغلب عليها التفكير العنصري المشروخ. وكما حاول إدوارد سعيد أن يدلل في كتبه **الاستشراق** (1978)، **قضية فلسطين** (1979)، **تغطية الإسلام** (1981)، **والثقافة والإمبريالية** (1993)، وغيرها فإن هذه

(1) رضوان السيد، «الاستشراق والمستشرقون بين الغلو والمغالاة»، ص ص 190 ـ 191.

المعرفة كانت شريكة متواطئة للإمبريالية الأوروبية في توسعها في سائر العالم في القرنين الماضيين. حيث وظفت في مواجهة الغرب لسائر العالم ولا سيما الشرق، وأسهمت في تدبره واحتوائه واحتلاله واستغلاله وقمع تطلعات أهله ليبقى باستمرار مجرد كوكب تابع للحواضر الغربية مراكز القوة والمعرفة.

ورابع ما يلاحظه المرء في هذه المعرفة الاستشراقية أنها لا تنهض لأي مقارنة مع نظيراتها ولا سيما المتصلة بالآخر الأوروبي. ففضلاً عن كونها أبعد ما تكون عن الموضوعية، ومحفوزة أساساً بدوافع الهيمنة والسيطرة على الآخر، وحاملة لجملة من التضمنات الأيديولوجية المريضة، فإنها لم تحقق أي فتح معرفي يمكن أن يسجل لها، بل كانت في أغلب الأحيان مجرد توسّع تطبيقي للون معرفي غربي، ينتمي إلى طبقة أدنى. فمؤلفات الكثير من المستشرقين، وإن بدت في ظاهرها متقدمة منهجياً، متخلفة معرفياً عن الكثير مما أنتجه الغرب في الحقول المعرفية الإنسانية نفسها والمتصلة بالمجتمعات الغربية نفسها، وحسب المرء أن يقارن بين كتاب يرصد تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية، أو الأدب العربي في زمن ومكان معينين، مع تاريخ آخر لفلسفة قومية أوروبية، أو أدب أوروبي قومي، حتى يتبين المسافة التي تفصل بينهما معرفياً ومنهجياً. ذلك أن الغالب في هذه المؤلفات أنها تقوم على أساس واهن من معرفة اللغات الشرقية، وفهم مغرض قاصر خارجي للإسلام وثقافاته الغنية المختلفة عبر الزمان والمكان، وهما غير كافيين لتحقيق أي إنجاز على أي صعيد. وإن احتج بعضهم بأن شهادة الشرقي في المعرفة الاستشراقية وآراءه غير مقبولة لتخلفها الناجم عن تخلفه، فإن شهادةً لواحد من كبار مستشرقي الجيل القديم ربما كانت كافية في هذا الموضع. يكتب برنارد لويس عن الوظائف والمهمات التي يسندها المجتمع الغربي للمستشرق وعن كفاءته في أدائها فيقول:

> «فالمستشرق الكلاسيكي كان قد تربّى في أحضان علم اللاهوت والفيلولوجيا وأحياناً علم التاريخ. وفجأة راحوا يطلبون منه أن يتحمل مسؤولية السياسة الحديثة والاقتصاد والمجتمع. وقبل المستشرق بذلك طوعاً أو كرهاً وراح يتدخل في كل شيء ويناقش

كل شيء من المعلقات الجاهلية إلى الصناعة البترولية والبنك الحديث، وكان يتحدث عن كل ذلك بالهيبة العلمية نفسها، ولكن ليس بالكفاءة نفسها للأسف»[1].

وعندما يلتفت المرء إلى وظيفة المعرفة الاستشراقية، أو مجموعة الوظائف التي أدّتها خلال تاريخها الطويل، فإنه يلاحظ وبكل أسف، وعلى الرغم من تقديره لجميع الجوانب الإيجابية التي تنطوي عليها بعض الأعمال الفردية التي أنتجها المستشرقون متحدين بذلك تيّار التقليد الجارف للاستشراق، جملة من الأمور التي ربما كان من أبرزها:

1 ـ أن هذه المعرفة الاستشراقية لم تقدّم على وجه الإجمال، وعلى نحو مباشر، أية خدمة حقيقية لموضوعها الذي هو الشرق والشرقيون. وبدلاً من أن تسهم، بوصفها معرفة إنسانية، في الارتقاء بأي وجه من وجوه حياة الشرقيين، فإنها في الغالب كانت وبالاً عليهم، لأنها لم تستخدم إلا للسيطرة على مقدّراتهم، واحتوائهم، واستغلال خيراتهم، وربما سلبهم كل ما يحفظ عليهم إنسانيتهم. فقد وظّفت أساساً من أجل خدمة منتجها الذي أفاد منها أية إفادة في مواجهته للآخر الذي كان الشرق: يغزوه حيناً، ويحتله حيناً، ويستغله حيناً ثالثاً، ويحبط مساعيه نحو التقدم حيناً رابعاً، ويحدّ من طموحاته في بناء مستقبل أفضل لأبنائه حيناً خامساً، مما يمكن التدليل عليه بإسهاب في التاريخ الحديث لعلاقة الشرق بالغرب ولا سيما في القرنين الأخيرين.

2 ـ أن هذه المعرفة الاستشراقية لم تسهم، ولو بتواضع، في تحسين العلاقات المتبادلة بين الشرق والغرب؛ وعلى الرغم من أن الناس يكونون عادة أعداء ما يجهلون، وأن المعرفة بتبديدها للجهل يمكن أن تبدد العداوة كذلك، فإن المعرفة الاستشراقية لم تسهم إلا في تأجيج نار العداوة والبغضاء والكراهية تجاه الآخر، بل إنها في حقيقة الأمر خلقت منه صورة نقيضاً في

(1) برنارد لويس، «حالة الدراسات المتعلقة بالشرق الأوسط»، في: **الاستشراق بين دعاته ومعارضيه**، ص 139.

كل وجه للغرب الذي سعى إلى تأكيد هويته إيجابياً من خلال إسقاط كل الصفات السلبية على «الآخر» الشرق. وهكذا حاولت هذه المعرفة ترسيخ صفات العقلانية، والديموقراطية، والمجتمع المدني، والجدّ، والنظام، والحضارة في حديثها عن «الأنا» الغربي، مقابل صفات العاطفية، والاستبداد، والمجتمع التقليدي، والكسل، والفوضى، والبربرية في حديثها عن «الآخر» الشرقي، بل إن هذه الصفات السلبية عُزيت في نهاية المطاف إلى الإسلام منبع كل الشرور التي تسود المجتمع الشرقي.

ولعل آخر فصول هذا الدور السلبي الذي أدّته هذه المعرفة ما نشهده مؤخراً من سعي الاستشراق بكل مؤسساته القديمة والحديثة إلى وضع الإسلام في مواجهة الغرب، بديلاً عن العدو الشيوعي الذي انهارت مقاومته بانهيار الاتحاد السوفياتي وكتلة الدول الاشتراكية، يتخذه عدوّاً يسعى إلى احتوائه بشتّى السبل، ولا سيما بعد أن صُوّر على أنه موطن الإرهاب، والأصولية، والكراهية للآخر الغربي. وما رواج حديث صُنّاع القرار في المجتمعات الغربية عن «**صدام الحضارات**» وعن ضرورة حماية الأنموذج الغربي من التهديد الذي تمثله الحضارات الأخرى وبخاصة الحضارة الإسلامية إلا مؤشر واحد على الدور الخبيث الذي تؤديه هذه المعرفة في بث سوء التفاهم بين الشرق والغرب وتعزيزه والترويج لمناخ المواجهة التي ستنتهي حتماً بغلبة القوي/ الغرب الذي يريد أن يكون السيد الأوحد في ظل ما يسمى بالنظام العالمي الجديد New World Order، وهيمنة نزعة العولمة التي تيسّر للغني والقوي سوقاً لا حدود لها، ومواد أولية رخيصة، وأيادي عاملة بخسة، وأنظمة وقيوداً بيئية مرنة لا تعيق الاستثمار الواسع للشركات الكبرى التي باتت المحرك الأكثر أهمية للسياسة الدولية.

ولكن عقب أخيل الذي يكمن فيه مقتل المعرفة الاستشراقية بوصفها معرفة عن «الآخر» هو استبعادها الذي يكاد يكون مطلقاً لهذا الآخر من فسحة إنتاجها ونشرها، على الرغم من أنه يفترض به أن يكون في المركز منها ما دامت قد اتخذته موضوعاً لها. ولكن واقع الحال أنها تنتج وتنشر بمعزل تام

عنه، فهي تتجاهله أولاً بوصفه موضوعاً Subject matter لها. على الرغم من أن طبيعة المادة المدروسة هي التي تحدد عادة الطريقة الأمثل لتدبرها فإن الغالب على سلوك منتجي المعرفة الاستشراقية أنهم يقيسون كل شيء شرقي بمقاييسهم، ويسقطون عليه معاييرهم، وبالتالي فإن حكمهم عليه إيجاباً أو سلباً إنما يكون بمدى اقترابه أو ابتعاده عن الأنموذج الغربي السامي والذي هو المثال والمآل بالنسبة لأهله: المثال الذي ينبغي أن يحتذى، والمآل الذي يجب أن ينتهي به كل مسعى شرقي في طريق التنمية والتطور والتقدم والحداثة. وهي تتجاهله ثانياً بوصفه متلقياً لها لأنها، إلا في القليل أو النادر جداً، تنتج عادة بلغة غير لغته، وأطر مرجعية غريبة عنه، وبحساسية قد تنافي حساسيته، بل ربما لا تبالي بوجوده أو بقيمه أو بمعاييره أو أذواقه أو رغباته أو تطلعاته أو مطامحه. وقد تُقدم أحياناً على انتهاك حرماته وتدنيس مقدساته والعبث بكرامته.

والأهم من ذلك كله أنها تستبعده شريكاً لها في إنتاج المعرفة المتصلة به، ولذا فإننا نادراً ما نرى منتجي هذه المعرفة من الخارجيين يصدرون جزئياً أو كلياً عما ينتجه الداخليون من بحث ودراسات وكتب ومقالات عما يتصل بهم. وعلى الرغم من أن بعض منتجي هذه المعرفة من الخارجيين يعتذرون عن تجاهلهم المقصود أحياناً لما ينتجه الداخليون بصعوبة الحصول على المراجع الشرقية، أو بتدني مستواها (مما يعكس النظرة العنصرية المحكومة بعقدة التفوق)، أو تخلف مناهجها، وغير ذلك، فإن معظمهم ينظر باستخفاف إلى ما يكتبه الداخليون حتى عندما يكون ذلك متيسراً بلغة أجنبية يعرفونها، فاللغات الشرقية ولا سيما العربية، لم تتخذ بعد لغة بحث وتنقيب في الأوساط الاستشراقية ومنتجو المعرفة الاستشراقية من الخارجيين لا ينفقون وقتاً وجهداً كافيين في التنقيب عن المعلومات والمعرفة في المكتبة الشرقية (أي في مجموع الكتب المدونة باللغات الشرقية) لسبب في غاية البساطة هو أن معرفتهم بهذه اللغات لا تسمح لهم بالمراجعة السريعة المجدية للباحث الحريص على وقته وجهده، والمستشرق قد يستغرق أسابيع عدة في قراءة كتاب أو مرجع متيسّر بلغة شرقية، وربما كان بحاجة إلى مساعدة حتى

يستقيم له فهمه لهذا الكتاب أو المرجع، الأمر الذي يجعله يلجأ إلى الاكتفاء بذكره في حواشيه وبيبليوغرافيته وتجاوزه بأحكام سريعة تسوغ صنيعه الذي كان يمكن أن يوبَّخ عليه لو أنه كان يكتب في حقل معرفي آخر غير الدراسات الشرقية، من مثل الدراسات الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية أو الروسية، لأن فعله هذا غير مقبول في أي تقليد بحثي جامعي يحرص على الحد الأدنى من احترام الذات.

ومعنى هذا أن ثمة حاجة ماسة لإنشاء تقليد ثقافي بديل عن المعرفة الاستشراقية الذي لا يرقى بوضعه الحالي إلى الطموحات الإنسانية في معرفة النفس أو معرفة الآخر، ولا سيما أن المعرفة الإنسانية، كما أصبح واضحاً فيما تقدم من سطور، لا تكون معرفة حقيقية جديرة باسمها دون أن تكون مؤسسة على الشراكة بين الأنا والآخر. وبعبارة أخرى ثمة حاجة ماسة إلى «استشراق جديد» يستند إلى أسس تحكم إنتاجه من جهة مثلما توجه مقاصده من جهة أخرى.

وأول هذه الأسس هو قيام الاستشراق الجديد على مبدأ الشراكة المعرفية بين جميع منتجي المعرفة المتصلة بالشرق بصرف النظر عن قومياتهم وأجناسهم وأديانهم ولغاتهم. ويقع على رأس هؤلاء «الداخليون» أنفسهم موضوع الدراسات الشرقية أو «الشرقيون»، وهناك «الخارجيون» الذين يشملون الأوروبيين الجار الأقرب للشرق، والآسيويين، والإفريقيين، والأستراليين، والأمريكيين اللاتينيين فضلاً عن الشريك الأمريكي الشمالي الذي يحاول اليوم تدويل، أو بالأحرى عولمة، الدراسات الشرق أوسطية على نحو ييسر له الهيمنة على برامجها وتوظيفها لتعزيز مكانته في ظل ما يسمى بالنظام العالمي الجديد[1].

والمرجو من هذه الشركة زعزعة المركزية الغربية المهيمنة على

(1) د. عبد النبي اصطيف، «الاستشراق الأمريكي من النهضة إلى السقوط»، المستقبل العربي، بيروت، العدد 233، تموز 1998، ص ص 39 ـ 41.

الدراسات الاستشراقية الراهنة، وإفساح المجال أمام أطراف أخرى للإسهام في تشكيل التقليد الجديد الذي ينبغي أن توظف حصيلته في خدمة الإنسان بصرف النظر عن هويته أو جنسه أو دينه أو نوعه، ولا سيما أن هذه المعرفة نتاج جهود شركاء كثيرين من الشمال والجنوب، والشرق والغرب، وليس ثمة من مسوغ لاحتكار حصيلتها من قبل شركاء معنيين وتوظيفها لخدمة مصالحهم الآجلة والعاجلة على حساب شركاء آخرين وبخاصة الداخليين أنفسهم.

وفضلاً عما تقدم فإن من الضروري توجيه إنتاج هذه المعرفة على نحو يحقق جملة من المقاصد الإنسانية النبيلة والتي ربما كان من أهمها:

1 ـ الإسهام بالارتقاء بمختلف وجوه حياة «موضوعها»، أي الشرقيين أنفسهم. فمن العبث بحق أن نفكر بإنتاج معرفة إنسانية، وننفق في سبيل ذلك الجهد والوقت والمال ثم لا نفكر فيما يمكن أن تقدمه من خدمة لموضوعها الإنساني، أو فيما يمكن أن تسهم به من فهم لماضيه، واستيعاب لحاضره، وضمان لمستقبله. أما أن يكون هذا الموضوع آخر من يفيد من هذه المعرفة، أو أن تتخذ، كما هو عليه الحال الآن، أداة لاحتوائه، وتدجينه، واستغلاله، والتحكم بمقدراته، وسلب ثرواته، فإن ذلك يعد جريمة أخلاقية لا تغتفر مهما كانت دوافعها، أو مسوغاتها، أو ظروفها، ولا يستطيع المستشرق أن يزعم أن غرضه من إنتاج المعرفة المتصلة بالشرق هو الحقيقة، أو العلم، أو المعرفة، بصرف النظر عن وجوه توظيفها فهذا ليس من شأنه، ولا يعنيه في شيء. ذلك أن المعرفة لا ينبغي بحال أن توظف إلا في خدمة الإنسان فهو منتجها وموضوعها وغايتها.

2 ـ الإسهام في تعزيز التفاهم بين الأمم والشعوب، ولا سيما بين الشرق والغرب ذلك أن الإنسان يكون عادة عدو ما يجهل أو من يجهل، والمعرفة يمكن أن تبدد العداوة بتبديدها للجهل، ولما كانت المعرفة الاستشراقية الراهنة مؤسسة على الجهل ذي التاريخ الطويل فقد قادت إلى العداوة بين منتجها (الغرب) وموضوعها (الشرق)، ولذا فإن من المرجو من المعرفة الجديدة عن الشرق، أو من الاستشراق الجديد القائم على الشراكة

المعرفية، أن تكون المدخل السليم لبناء علاقة سليمة بين الشرق والغرب وتعزيز التفاهم بينهما، وليس إذكاء الحقد والكراهية والشكوك والمخاوف بين الفريقين، والإرهاص بصدام بين حضارتيهما.

## صفوة القول

الاستشراق (أو تلك المعرفة التي ينتجها «الآخر» عن الشرق عامة، والشرق العربي خاصة: تاريخاً وثقافة، ومجتمعاً) يظل، مهما بالغ المرء في موقفه الإيجابي منه، ومهما أسرف في تقديره لإنجازاته المعرفية في الجانب الأكاديمي والبحثي منه، منتَجاً ثقافياً إنسانياً محكوماً بظروف المواجهة بين منتجها (الغرب) وموضوعها (الشرق) وبمواقف طرفي هذه المواجهة، وأهوائهم، وأفكارهم المسبقة كلٌّ عن الآخر، ومصالحهم الدنيوية في عالم تحفزه المصالح أكثر مما تحفزه القيم والمثل والمبادئ. إنه معرفة دنيوية منغمسة تماماً في الظروف والشروط المادية والمناخات السياسية والأيديولوجية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لإنتاجها، وقد كانت بسبب فيروس القوة والسلطان الذي داخلها وَبالاً على موضوعها عندما وُظِّفت من أجل احتوائه واستغلاله والهيمنة عليه وعلى مقدراته والتحكم بمصائره وإحباط تطلعاته نحو مستقبل أفضل. أي أنها، على خلاف ما يتوقعه المرء عادة من المعرفة، لم تقدم أية خدمة لموضوعها (الشرق) ولم تسع إلى الارتقاء بأي وجه من وجوه حياة أفراده (الشرقيين)، أو إلى خدمة قضية تنمية مجتمعاتهم وتقدمها وتطورها. وكانت حصيلتها مأساوية في مجال العلاقات الإنسانية بين الأمم والشعوب والثقافات المختلفة، وبدل أن تسهم في خلق تفاهم ما بين الشرق والغرب قائم على أسس مكينة من الفهم والاحترام المتبادلين، كانت وللأسف من أكبر المسهمين في تعزيز سوء التفاهم الذي يهيمن على هذه العلاقة.

ومعنى هذا أن حل أزمة الاستشراق الراهنة لا يمكن أن يتم إلا من خلال خلق بديل جذري لهذا التقليد الثقافي الملوث بفيروس السلطان والمنتج في مناخ المواجهة ـ بديل يرقى للمقارنة مع ما ينتج من معرفة خاصة بالأمم والشعوب والمناطق الأخرى.

وبالطبع فإن خلق التقاليد الثقافية لا يمكن أن يتحقّق بين عشية وضحاها. ولكن انتظار خلق هذا البديل ينبغي ألا يطول، فالزمن لا يخدم المتقاعسين، ولا يتحوّل إلى قوة إيجابية تقف إلى جانب الإنسان إلا بالعمل الجاد والمخلص. كذلك فإن مهمة خطيرة كهذه لا يمكن أن تترك للآخرين ولمبادراتهم، بل يجب أن ينهض بها أساساً الداخليون من الشرقيين أنفسهم والذين يشكلون موضوع الاستشراق ولا سيما أنهم من ينبغي أن يقطفوا ثمار هذا البديل، أو ما سميته بالاستشراق الجديد. إن على الشرقيين، وبخاصة أولئك المعنيين بعملية إنتاج المعرفة عن الشرق، أن يبادروا إلى الأخذ بزمام المبادرة وتولي المسؤولية كاملة في إنتاج كل ما يتصل بتاريخهم ومجتمعاتهم وثقافاتهم من معرفة، وألا يعتمدوا كل الاعتماد، أو جلّه، على «الآخر» ـ الغربي بشكل خاص ـ في إنتاج هذه المعرفة، لأنهم عند ذلك يغامرون، إن لم يكونوا يقامرون، بأمنهم واستقرارهم ومستقبلهم، والأمن الحقيقي هو الأمن المعرفي الذي يكفل المعرفة التي يحتاجها الشرقيون لفهم ماضيهم، واستيعاب حاضرهم، وبناء مستقبلهم.